رمزية الحروف والنقاط وإيحاءاتها في شعر أديب كمال الدين

أ.م.د. رسول بلاوي/ أستاذ مساعد في جامعة خليج فارس، بوشهر
أ. عبد العزيز حمادي/ أستاذ معيد في جامعة بيام نور الإيرانية

Symbolism of Letters and Periods in the Poetry of Adeeb Kamal Al-Deen

Asst. Prof. Dr. Rasool Balawi / Persian Gulf University, Bushahar
Prof. Abdul Aziz Humadi / Lecturer in the Iranian University of Biam Noor
r.ballawy@pgu.ac.ir

Abstract

The letter is considered the essential base of the text and the core of creativity. Letters have special connotations the meanings of which are known by their repletion in similar and close structures. Thus, the meaning of the letter may be got by rooting deep into the poet's idea and his intended aim. The Iraqi poet, Adeeb Kamal Al-Deen is among the contemporary poets who has followed up the poetic modernity with its arts, literary and critical terms.

Key words: Letters, period, symbolism, Adeeb Kamal Al-Deen

الملخص:

يعتبر الحرف اللبنة الأساسية لبناء النص وإكسير الإبداع لبثّ جوهر المعنى في جسد اللفظ وذلك من حيث العلاقة الوطيدة والرصينة في ما بين اللفظ والمعنى. للحروف دلالات خاصة نتعرف عليها من خلال تكرارها في بعض المعاني المتشابهة والمتقاربة فلذلك نستطيع تأويل معنى الأحرف من خلال الغور في فكرة الشاعر والمغزى المروم من ذكرها، فإنَّ الحرف من حيث ما يحمله من رمزية يُعدُّ تصغيراً لحجم الكلمة والجملة والخطاب. نستطيع القول بأن الحرف الدالّ كالجملة المضغوطة بمعانٍ كثيرة ومكثفة. يُعدُّ الشاعر العراقي أديب كمال الدين من الشعراء المعاصرين الذين واكبوا الحداثة الشعرية بفنونها ومصطلحاتها الأدبية والنقدية الحديثة، وغاض في محيط الأدب الحديث مفتشاً عن لآلئ الإبداع. فعندما نضع مسبر البحث في طي مجموعاته الشعرية ونمشط أروقة قصائده نجد رفوف أشعاره متعثكلة بالثمر الفني الحديث، لم يبق باباً للحداثة إلا وطرقه ودخل بمرونة وانسيابية إلى عمق مبتغاه المطلوب. تهدف هذه الدراسة –التي جاءت على أساس المنهج الوصفي التحليلي– إلى تسليط الضوء على نتاجات الشاعر أديب كمال الدين التي وظف خلالها رمزية الحرف والنقطة الدالة على معان مختلفة، فالحرف والنقطة عنده دالتان هادفتان بعيدتان عن الإعتباطية والعبثية المملة، فاتّخذ كمال الدين الحروف كآلة للتعبير يوصل من خلالها جمال الشكل وعمق الفكرة للمتلقي، والنقطة لديه علامة ذات دلالة تتحدث عمّا يهدف إليه بقصد سبر مدى ذكاء المتلقي وإثراء النص بفن شعري حديث استطاع أن ينفرد باستخدامه وتوظيفه باتقان تام.

الكلمات الدليلية: الحروف، النقطة، الرمزية، أديب كمال الدين.

المقدمة:

لقد تميّز أديب كمال الدين بتجربته الشعريّة الثرّة، إذ اعتمد ثنائية الحرف والنقطة في جميع دواوينه، فهما مشروعه الحياتي والشعريّ، ولا شك أنّ وجوده الإبداعي يتوقّف على هذه الثنائية. لم يزل عطاؤه الأدبي مستمراً ولم يكتمل بعد. ففي كلّ فترة يطلّ على الساحة الأدبية بمجموعة جديدة؛ ومع أيّ مجموعة من هذا الفيض الإبداعي نجد الشاعر متجدّداً فيها مع المحافظة على سماته الأسلوبية المركزية، مبدعاً في اكتشاف وخلق المجازات والتقنيات والصور الجديدة. إنّه يتناولُ الكثيرَ من الموضوعات والأغراض الشعريّة بجمالية ورقّة عاليتي التأثير، ومن خلال خيال واسع خصب مبني على اطلاع واسع في الشعر والأدب ونظر ثاقب وبصيرة نافذة، ومن خلال لغة غزيرة القاموس جليلة الاستخدام ثاقبة التعبير جميلة جزلة فخمة الإيقاع رقيقة الإيحاء واللفظ (بلاوي، ٢٠١٥م: ٧).

اتخذ أديب كمال الدين التجربة الحروفيّة هوية فنية وأسلوبية له، على مدى إصداراته الشعريّة التي تبدأ بديوانه تفاصيل (١٩٧٦) ولتترسخ في إصداراته اللاحقة مثل: "ديوان عربي" ثم "جيم" و"أخبار المعنى" و"نون" و"حاء" و"النقطة" و"ما قبل الحرف.. ما بعد النقطة"، "شجرة الحروف"، و"أربعون قصيدة عن الحرف"، و"أقول الحرف وأعني أصابعي"، و"مواقف الألف"، و"الحرف والغراب"، و"إشارات الألف"، و"رقصة الحرف الأخيرة". والمتأمّل في عناوين هذه الدواوين يدرك مدى اهتمام وعناية الشاعر بهذا المشروع الحروفيّ الذي اتّخذ من الحرف والنقطة وسيلة للتعبير عن رؤاه و أفكاره.

استطاع الشاعر من خلال تجربته الحروفيّة أن يستكمل تخليق الشعريّة الحداثية وشحنها بطاقات وآليات وتقنيات تشكيليّة وخطيّة اشتغل عليها بمهارة وحذق، وحدّد منظوراته الشعريّة من خلالها لتسهم في تخليق الكتابة الشعريّة الجديدة وتنويعاتها الدلالية وشفراتها المستقرة في البنية السطحية والعميقة. توغل قصيدة الشاعر أديب كمال الدين، ونصوصه المختلفة، في عالمها التشكيلي والخطّي عندما تقارب الحروف وتشكيلاتها حرفاً حرفاً ممّا يتيح له استجماع العناصر المشتتة واستحضارها ونسجها في اتساق وتماسك، وتنظيمها في وحدة تعبيرية وأسلوبية شاملة كمظهر بنائي وجمالي مهيمن على وحدات النصوص وتركيباتها. (عباس، ٢٠٠٧م، ١٥٧ – ١٥٥).

أسئلة البحث:

في هذه الدراسة نطرح سؤالين ونحاول مناقشتهما أثناء البحث:

– أولاً: كيف تعامل الشاعر أديب كمال الدين مع الحروف والنقاط في نصوصه الشعريّة؟

– ثانياً: ما هي أسباب ومبررات لجوء الشاعر في توظيفه للحروف وما مدى فاعليتها في النص؟

خلفية البحث:

هناك عدد من الكتب التي صدرت عن تجربة أديب كمال الدين والتي صبّت اهتمامها في البحث والتقصي في جماليات شعره منها: كتاب «الحروفيّ» وقد اشترك في تأليفه ٣٣ ناقداً حيث كتبوا عن تجربته الشعريّة؛ أعدّ هذا الكتاب وقدّم له د. مقداد رحيم. والكتاب الثاني «الحرف والطيف: عالم أديب كمال الدّين الشعريّ» للناقد د. مصطفي الكيلاني. والكتاب الآخر «الاجتماعي والمعرفي في شعر أديب كمال الدين» للباحث د. صالح الرزوق؛ وكتاب «أضفْ نوناً: قراءة في "نون" أديب كمال الدين» للباحثة د. حياة الخياري، وكتاب «تجلّيات الجمال والعشق عند أديب كمال الدين» للناقدة د. أسماء غريب، وأخيراً كتاب الناقد صباح الأنباري «إشكاليّة الغياب في حروفيّة أديب كمال الدين».

كما كُتِبتْ عنه مقالات كثيرة في شبكة المعلومات العالمية جمعها الشاعر في موقعه الرسمي. ونذكر منها: الأسطورة والرمز الديني في شعر أديب كمال الدين لـ "صالح الرزوق"؛ ووجوه وشخصيات في قصائد أديب كمال الدين للكاتب نفسه؛ وسلطة التناص الديني في شعر أديب كمال الدين لـ "وديع العبيدي"؛ و الرمز الصوفي في شعر أديب كمال الدين لـ "هادي علي الزيادي"؛ وتوظيف الصور القرآنية في الشعر أديب كمال الدين لـ"سمير عبد الرحيم اغا"؛ والحضور القرآنيّ والصوفيّ في (مواقف الألف) للشاعر أديب كمال الدين للدكتور "فاضل عبود التميمي"؛ وحقيقة النقطة والحرف في تجربة أديب كمال الدين الشعريّة لـ "صالح محمود"؛ والنقطة في الشعر لأديب كمال الدين/ النص حين يحتمل التأويل لـ"هشام العيسى"؛ وإشارات الألوان: قراءة في ديوان "الحرف والغراب" لأديب كمال الدين للناقدة د. "أسماء غريب". وإنّنا لا نجحد أهميّة هذه الدراسات النقدية التي سبقت بحثنا والتي استفدنا منها كثيراً في إعداد هذا البحث، وقد ركز فيها الباحثون على تأويل وتفسير بعض الظواهر والتقنيات التي جاءت في تجربة الشاعر.

أمّا دراستنا هذه فقد قمنا فيها بدراسة التقنيات التي اعتمدها الشاعر في منجزه الشعريّ ومدى إيحاء وفاعليتها في النص، وتأثير هذه التقنيات على المتلقّي في ظل المنهج الوصفي – التحليلي.

الرمز وفاعليته:

يُعدُّ الرمز من أهمّ وسائل تشكيل الصورة الشعريّة؛ لاسيّما في العصر الحديث. و«الرمز بمفهومه الشامل هو: ما يمكن أن يحلّ محلّ شيءٍ آخر في الدلالة عليه، ليس بطريقة المطابقة التامّة وإنّما بالإيحاء، أو بوجود علاقة عرضيّة، أو علاقةٍ متعارفٍ عليها» (سليمان، ١٩٨٧م: ٣٢). الرمز هو أحد أساليب اللغة في التعبير الشعري بشرط ألّا يتحول إلى لغز، بل يجب أن يظل الرمز على شفافية تنمّ عمّا خلّفه أو توحي بمضمونه (القاضي، ١٩٩٥م: ١٨٢).

الرمز ليس غاية في الشعر، ولا يجب أن يكون همّ الشاعر أن يملأ قصيدته برموز بعيدة عن غاية القصيدة والشعر، لأنه إذ ذاك، سيغترب عن القصيدة والرمز بذات الوقت، وسيفقد أحد أهمّ أدوات القصيدة؛ وهو الرمز المناسب الذي يستفيد من التجربة، ويسكبها في كأس المتعة المتأتية من تناغمه وغاية المعنى (بلاوي، ٢٠١٧م: ٤٦)، «فالرمز هو ما يتيح لنا أن نتأمّل شيئاً آخر وراء النص، الرمز هو، قبل كل شيء، معنىً خفي وإيحاء، إنه اللغة التي تبدأ حين تنتهي لغة القصيدة. أو هو القصيدة التي تتكون في وعيك بعد قراءة القصيدة. إنه البرق الذي يتيح للوعي أن يستشف عالماً لا حدود له لذلك هو إضاءة للوجود المعتم، واندفاع صوب الجوهر» (أدونيس، ١٩٧٨م: ١٦٠).

أصبحت للرموز بكافة مستوياتها أهمية قصوى للشاعر، بحيث غدا استدعاء الرموز أمراَ يثري المضمون الشعريّ، ويكشف عن المعاني التي يصعب الحديث عنها بطريقة مباشرة. معطيات الرمز عامل مؤثر في إغناء الصورة وفي رفد أبعادها آفاقاً جديدةً ومتنوعةً، وكذلك فإنّ وجود الرمز يستحضر معه مفردات خاصة بهِ، وهذه المفردات تؤدي إلى تخصيب الصورة وإغناء مناخاتها.

لم يكن هذا الاتجاه الرمزي جديداً في الشعر العربي، وإنّما سار الشعراء العراقيون على خُطى إخوانهم العرب في التعبير عمّا لم يستطيعوا أن يبوحوا به، فالظروف الصعبة التي عاش في كنفها العراقيون حدت بهم إلى لإتجاه نحو لغة الرمز ومواصلة النضال الشعريّ، لأنّ التصريح بالأفكار والأحاسيس الكامنة ربّما تقود صاحبها إلى الاعتقال أو السجن أو القتل. ولهذا السبب لجأ الكثير من شعراء العراق إلى الرمزية والاستعانة بالتراث. وقد نهلت لغة الشاعر أديب كمال الدين كثيراً من خصوبة التراث ورموزه فى مسيرتها الإبداعية، وإنّه – أي الشاعر– كان فعاليّة ثقافية، تتحرك بقوة في حقول الإبداع الشعريّ لتواصل اكتشافها لمناطق جديدة في الشعر والكتابة وإقامة تلك الجسور المجدولة بعمق بين مناطق الإبداع والذوق السليم والخيال الواسع والعواطف الجياشة.

إيحاءات الحروف ورمزيتها:

لا يُذكر اسم الشاعر أديب كمال الدين إلّا وذُكرت معه الحروف التي أصبحت لقبه وبصمته الخاصة في المشهد الشعريّ العراقي والعربي على حد سواء، ولم يكن ذلك وليد الصدفة ولم يتكرّر عشوائياً في منجزه الشعريّ بل كان مشروعاً (حروفيّاً) جادّاً وضع القارئ أمام تجربة فريدة من نوعها من حيث الوسيلة التعبيرية عن ثيمة النص الشعريّ الذي يؤول رؤاه من خلال (الحرف) الذي لم يكن وسيلة الوصول إلى الغاية بل كان الوسيلة والغاية معاً. يشكّل الحرف بحدّ ذاته هاجساً شعريّاً مركزياً بالنسبة لتجربة الشاعر أديب كمال الدين. ومبدئياً تتمثل (الحروفيّات) بالنسبة إليه كدلالات زاخرة بالمعاني، وكمشروع مكثّف لاستقراء الجذور التكوينية لكيان اللغة. فالحرف الذي (يشتغل) عليه الشاعر لا يفضي بنا إلى إحالات موضوعية مشتركة بمعنى أن تعميق دلالات الحرف بالنسبة إلى (المعامل الوجداني) الذي اختطّه الشاعر بقصدية أو شبه قصدية لا يبلغنا استعمالاته بذات الموضعية أو بذات التلقّي الذي يوزّع الحرف فينا تأثيره، ومعناه واستخدامه التداولي، بل يتخذ (الحرف) غالباً دلالات مزدوجة تحتمل التعددية في القراءة وبالطبع التعددية في مستويات التأويل وبامكاننا تأشير (التجربة الحروفيّة) للشاعر أديب كمال الدين مبدئياً بالمستويات الآتية:

١– المستوى الشكلي لاستثمار عطاء الحرف.

٢– المستوى (الصوفي) لاستثمار عطاء الحرف.

٣– المستوى (الشخصاني) الاعتباطي لاستثمار عطاء الحرف.

٤- مستويات أخرى تعتمد (الترابط الوظيفي) والاستخدام (البراغماتي). للحرف كأداة فنية بديلة خاصة بتحريك الرؤى الجمالية للشاعر وهي تساهم غالباً بانحراف دلالات الحرف عن سياقه الشعريّ المطلوب (ميري، «استكناه دلالات عطاء الحرف/ قراءة جمالية في قصائد (نون) للشاعر أديب كمال الدين»، مقال منشور في موقع الشاعر).

اتخذ أديب كمال الدين من الحروف وسيلة تعبير عن الحياة بشؤونها وشجونها المختلفة، ووهبها ما تجود به انفعالاته وأحاسيسه وأخيلته، فتفرّد بها وصارت دالّةً من دوال شعره. فأديب هو الشاعر الحروفيّ الذي وَجَد في حروف اللغة العربية وفي النقطة غزارةَ أسرارٍ ومكامنَ شعريّة هائلة، فقد استطاع خلق شعريّته الخاصة من جهة التعامل الدؤوب مع الحرف والنقطة حتّى أنسن الحرف وأنسن النقطة. لو نظرنا مثلاً في نصّ (جاء نوح ومضى):

ستموت الآن.

أعرفُ، يا صديقي الحرف، أنّكَ ستموت الآن.

لم تعدْ نقطتكَ الأنقى من ندى الوردة

تتحمّل كلّ هذا العذاب السحريّ

والكمائن وسط الظلام

والوحدة ذات السياط السبعة. (أربعون قصيدة عن الحرف: ٧)

ففي هذا المقطع نرى بأنه قد انبنى على شخصنة الحرف (يا صديقي الحرف). الشاعر يعتبر الحرف صديقاً له فأخذ يخطابه كأنّه يسمع ويعي ما يُقال له ويحدثه عن النقطة وكأنها عضو جميل ونقي من أعضاء بدن هذا الشخص وإضافة إلى ذلك بأنّه عضو حساس يشعر بما يأتيه من عذاب؛ ففي أكثر نصوص أديب نراه يحرص على تشخيص الحرف وخطابه وفقاً لرؤاه التي يريد الإفضاء إليها.

تجربة الشاعر أديب كمال الدين الشعريّة تمتاز بالريادة والإبتكار على المستويين المنهجي والفني. فهو وظّف الحرف واستثمر جوانبه المتعددة؛ حيث تحوّل الحرف لديه من مجرد عملية شخصنة إلى أسطورة تخالط الواقع حتّى يصعب على مستوى الفرز الدلالي أن تكتشف أيّهما الواقع وأيّهما الخيال.

نعم، انفرد أديب كمال الدين بتجربته الشعريّة الحروفيّة وأخلص لها في مشروعه الحياتي إذ نراه يقول:

في كينونتي

أعني في ارتباكي الكبير

ثمّة حرف

وثمّة نقطة. (شجرة الحروف: ٨٨)

نشاهد في هذه الأسطر أن الشاعر يتحدث عن حرف منقوط، الحرف الذي كوّن الشاعر رغم أنّه يعدُّ تلك الكينونة إرتباكاً لكنها الأصل في تشكيله فكأنه يقصد من ذلك الحرف المنقوط (خاء الخلق)، فلا يمكن تخيّل الحرف والنقطة بمعزل عن الشاعر، فهما يرتبطان به ارتباطاً عضوياً ولا ينفصلان عنه، فلا كيان لهما بدونه، ولا كيان له بدونهما، وهو ما يعني أن تجربة الشاعر لم تستقِ من الموضوع بل تنبع من الذات كثراء، كخصب، كعطاء، عبر شجرة غضة يانعة، ناضجة ثمارها يجتثّها من قلبه لينير بها العالم.

إنّ القانون الذي غالباً ما يتحكم في استعمال أديب كمال الدين للحروف يتمثّل في اشتقاق معنى الحرف من كلمة يكون جزءاً منها ذلك الحرف فينتقي أحد الأحرف من الكلمة ليكون ممثلاً ومفسّراً لها في نص الشاعر مع التركيز على المتلائمات والقرائن المفسرة لمعاني الحروف التابعة للكلمة، يقول:

وصديقٌ طيّبٌ ينكرُ على الله

أنْ يقولَ للشيء كُنْ فيكون....

سينهضُ في آخر الليل

وهو ينكرُ أنّ الله

هو الذي خلق الكافَ والنون. (الحرف والغراب: ٢٥-٢٣)

لم يذهب فكر المتلقي بعيداً في هذا المقطع بل يجني ثمار الرمز الحرفي بعد التفاتة قصيرة إلى مفتتح المقطع، فخلق "الكاف" و"النون" تدلّ على الكون وهنا يتناص الشاعر مع الآية الشريفة «كن فيكون» والتي وردت في أكثر من آية قرآنية. وأيضاً يقول:

اجْتَمَعَتِ الحَاءُ بالبَاءِ فكَانَ الكَوْنُ! (نون: ٦٤)

"الحاء" و"الباء" حرفان خافتان ومتعاكسان (شفوي وحلقي)، ولهما معنى عاطفي مضمونه (حبّ)، وهذه أصغر مفردة ذات معنى تدل على أكبر مشاعر إنسانية فريدة. فيرمز الشاعر في هذا المقتبس بحرفي "الحاء" و"الباء" إلى "الحبّ" الذي يراه سبباً في خلق الكون. ومن قبيل قوله:

في حاءِ حبّكِ التي وسعتْ كلَّ شيء

وُلِدت الباءُ بريئةً كدمعة. (السابق:٢٨)

دلالات حرف النون:

ومن أكثر الحروف توظيفاً في شعر أديب كمال الدين هي "النون". فهي تمثّل الدالة الأكثر خصوبة في حروفيّة الشاعر لقدرتها على التشتت والتشظّي والانفجار وتكوين مجرّات جديدة. والصفات الخاصة لحرف النون تؤهله لأن يكون موضوعاً شعريّاً أو مخلوقا ألسنياً لديه أسراره ومناقبه. ولذلك يمكن أن يحتمل ألعابنا اللغوية وأخيلتنا بنقطته وبدائرته المفتوحة، بصورته الأصلية التي كانت عمياء من غير تنقيط. والأمثلة على ذلك لا تُعدّ ولا تُحصى. يقول في قصيدة (قاف):

صربتُ أرى نونَكِ من غيرِ نقطةٍ فأبكي. (نون: ١٣)

حرف "النون" في شعر أديب يرمز إلى الكون، ونقطتها ترمز إلى الشاعر، وأحياناً يرمز هذا الحرف إلى سفينة نوح ونقطتها إلى النبي نوح، وأحياناً ترتبط بالنبي يونس وقصة الحوت المعروفة. أما الشاعر نفسه فيقول عن معنى هذا الحرف:

النون هي النون

فلا تضعوا على لساني

كلمات لم أقلها

ولا حروفاً لم أعرفْ سرّها ونجواها. (شجرة الحروف:١٠٧)

إنّ الحرف كدالّ رمزيّ وضع أمام أديب كمال الدين مساحات شاسعة ليتحرّك عليها بخفّة، ومرونة، وقدرة على ملء فراغات تلك المساحات أكثر بكثير ممن ملأوا بالكاد واحداً أو اكثر من تلك الفراغات. لقد عرف أديب كيف يستثمر فضاء الحروف لصالح الحدث، وحركاتها لصالح فعله الشعريّ المتضمن على قدر وافر من الدراما فجعل تجربته كلها وقفاً على الحروفيّة، وعلى السير بهديها حتّى نهاية الطريق من دون أن يمنح نفسه فرصة للتوقف، واستعادة الأنفاس، واكتشاف مساحات أخرى لتجارب ما بعد الحروفيّة.

دلالات حرف الحاء:

يستخدم الشاعر الحروف التي تنسجم رمزياً مع الحالة النفسية التي يعيشها، أو تنسجم مع موقف خاص أراد الشاعر الوقوف والتركيز على زواياه المختلفة؛ ولعل أكثر تلك الحروف نجاحاً في استخدامها كمعادل ترميزي للحالة التي يعيشها الشاعر هو حرف (الحاء):

في الليلةِ الأربعين

سقطتْ صيحتي

فجمعتُ زجاجَها بلساني الجريح

كانت الصيحةُ مرسومةً بالحاء.

كانت الصيحةُ طفوليّةً كالماء...(النقطة: ٦)

لقد استخدم الشاعر (حرف الحاء) في هذا المقطع الصغير خمس مرات لأنّ (الحاء) هو الحرف الذي عندما نلفظه لا يتّجه إلى خارج الفم بقدر ما يتّجه إلى الداخل، وإلى حيث موقع (القلب) وهذا الأمر يتحقق في حالتي الوجع الذي يسبب (الصيحة) أو (الحبّ) الذي يفقد القلب الإنساني هدوءه واستقراره لأنّ هاتين الحالتين الإنسانيتين محكومتان بذلك الاحتراق الذي يكون داخل الإنسان حاضنته.

ويرى الشاعر حرف "الحاء" في معترك الحياة مجرد حلم ورماد، فنراه في هذا المقطع يحدّدُ الحرف ثمّ يوضح ما يريد من دلالة بعيداً عن الرمزية التي يستلهمها القارئ بعد التمعن والتدقيق في مغزى الشاعر، والجميل أنّه أوضح دلالته بكلمة تحمل نفس الحرف وإذا قلنا من قبل بأنّ استخدام الحروف ليس اعتباطياً عند هذا الشاعر هنا يصدق القول فهذا المنوذج خير دليل على ذلك فإنّ الحاء هي بداية الكلمة والتاء نهايتها فتحدّث هنا عن الحياة من بدايتها إلى نهايتها بمحرد حرفين يوضحهما بال(حلم، رماد، ألم، نوم، نسيان):

حاءُ الحياةِ حلمٌ ورماد

وتاؤها ألمٌ ونومٌ ونسيان. (الحاء: ٥٠)

ولعلّ هذا الحرف يدلّ على الحيرة أيضاً فقد احتار الشاعر الحروفيّ من تعدّد دلالات الحاء، فتارةً يراها راقصة أسطورية وتارةً توابيت عارية وتارةً أخرى يراها ذهباً وجمراً ودموعاً وسكاكين، فكل هذه الأمور تدلُّ على مراحل مختلفة من الحياة أو أدوات يستخدمها الإنسان في مواقف مختلفة من الحياة ولا تخلو هذه الكلمات في دلالاتها من حرف الحاء فراقصة أسطورية هي (حواء)، توابيت عارية (حتف)، ذهب (حلية)، جمر (حر)، دموع (حرة) سكاكين (حربة، حدّة):

عجبَ الحروفيّ من هذه الحاء

فلقد رآها مرّةً راقصةً أسطوريّة

ومرّةً رآها توابيت عارية

ومرّةً رآها ذهباً وجمراً ودموعاً وسكاكين.

فاحتار

قيل له: اخترْ لهذه الحاء كلمةً واحدة

ولا تزدْ

فقال: حاءُ الحياة...

ومات. (السابق: ٥٦)

بالرغم من تعدديّة المعاني والدلالات التي يدلّ عليها حرف الحاء إلّا أنّ الشاعر إذا أراد أن يلخّص هذه الدلالات بكلمة واحدة فهي الحياة لأنّه يراها أكثر اتّساعاً من غيرها من الحروف التي تحمل الحاء في جسدها. وكثيراً ما تلتقي حاء الحياة بحاء الحلم:

فتّشت بعينين دامعتين عن حاء الحلم،

فتّشت أوراقَ قصائدي القديمة،

لم أجدْ إلّا حاء نوح

وحاء الحرمان

وحاء الحرب

وحاء الحنين. (رقصة الحرف الأخيرة: ٤٧)

والشاعر في بحثه عن حاء الحلم التي تحتوي على جميع الحاءات لم يجد منها سوى حاء نوح وحاء الحرمان وحاء الحرب وحاء الحنين. فالشاعر لم يصل تماماً إلى سرّ الحياة (حاء الحلم) بل اقترب قليلاً إلى روح الأمل والمثابرة والنجاح (حاء نوح) مع شيء من اليأس والحرمان والأذى والحنين؛ لكنّ الشاعر نسي أن يبحث عن الحبّ الذي يمكن له **أن** يساعده كثيراً في رحلته:

في بحثي المجنون عن حاء نوح

وحاء الحرمان

وحاء الحرب

وحاء الحنين،

نسيتُ أنْ أبحثَ عن حاء الحبّ. (السابق: ٥١)

ولعلّ الشاعر تعمّد في تناسي حاء الحبّ ولم يجعلها ضمن الحاءات التي ذكرها للأسباب التالية:

حاءُ الحبّ أكثر الحاءاتِ شَعْوذة،

هكذا قالَ لي الصحفيون.

حاءُ الحبّ أكثرُ الحاءاتِ التباساً

وغموضا وهرطقة،

هكذا قالَ لي المؤرّخون.

حاءُ الحبّ أكثرُ الحاءاتِ مَبْعثاً

للضحكِ والفكاهةِ والسخرية،

هكذا قالَ لي الحشّاشون.

لكنّ قلبي قال:

حاءُ الحبّ أكثرُ الحاءاتِ مَبْعثاً للجنون. (رقصة الحرف الأخيرة: ٥١ و٥٢)

دلالات حرف الباء:

حرف (الباء) سرّ الوجود، لكونه ينبع من فكرة تلخيص القرآن الكريم بسورة الفاتحة، والفاتحة بالبسملة، وبالبسملة بالباء، والباء بالنقطة، فهي بالتالي «رمز للتعين الأول، الذي يشكّل وسطاً بين الواحد والكثير. أما نقطة الباء فتشير إلى وجود العالم أي الموجودات. ووقوعها تحت الباء تمثيل لتبعية الموجودات للتعين الأول. وهي رمز الإنسان الكامل عند الصوفيّة» (الحكيم، ١٩٨١م: ١٨١). لهذا جاءت (الباء) لدى الشاعر (لها شكل الماء)، فكانت تعبيراً عن ديمومة الحياة في قصيدة (أنثى المعنى):

الباءُ دعاءٌ سريّ أسكنتُ مخارجه قلبي

حتّى مات القلبُ بدائرةِ الباءْ.

والباءُ لها شكلُ الماء. (أخبار المعنى: ٢٣)

وهي (لها شكل الكاف، وأوعية اللام/ ولها دائرة الميم الحمراء، ونون الخالق):

الباءُ لها شكلُ الألفِ المذعورْ،

شكلُ التاءِ الممتدّةِ ما بين اللاشيء،

شكلُ الجيمِ المجنونةِ بالجنّة والجنْ.

ولها هاءُ همومي،

واو وعودي،

حاءُ حنيني،

طاءُ طيوري،

ياءُ دعائي.

الباءُ لها شكلُ الكافِ وأوعية اللام

ولها دائرةُ الميمِ الحمراء ونون الخالقْ. (أخبار المعنى: ٢٤)

هكذا يتنقّل بالباء من حرف إلى آخر ومن معنىً إلى آخر بدلالات مختلفة حيث يصل بها إلى مرحلة الفناء في قصيدة (باء المعنى) حينما يقول:

في باءِ القِبْلةِ قرب حروف الذهب الأعلى..

أم في باء خرابي حيث الموت له عينان؟ (الأعمال الشعريّة الكاملة:١٦٦)

و(الباء) حرف معذَّب عند الشاعر يبحث عن لذائذه التي فقدها في العالم الآخر خلف ستائرٍ من المجهول منقّباً في غياهب الماضي ومجاهل المستقبل. وفي النصّ التالي يتحدّث الشاعر عن حرف "الباء" الذي يسمّيه أهل العلم بالحرف الكاشف!

يقول أديب كمال الدين في قصيدته "أنثى المعنى":

الباءُ لها شكلُ الأنثى،

شكلُ الحلمِ السريّ وضوضاء الأمطار. (أخبار المعنى: ٢١)

في هذا النص جعل من الباء دالاً على الجانب الأنثوي من روح الوجود. فالباء طاقة أنثوية مطلّة على المكنون. يقول العلوي «ليست نقطة الباء أيّة نقطة كانت بل هي باء البسملة، فهي نقطة لها موقع دال وكينوني ولو سقطت لاختلّ نظام البسملة..» (العلوي،١٩٩٧م: ١٠٥).

ولعل مَن تأمّل باء (بسم الله) كانت نظرة الفراهيدي لفحولة الباء من جهة الجنس عندما ذكر في معناه (إنّها الرجل الكثير الجماع) (السابق: ١٠٥):

هل أبيع حبي ؟

قد فعلتُ.

ومَن اشتراه ؟

اشترته النساءُ اللاتي لا حاء في بائهنّ

ولا باء في حائهنّ. (النقطة: ٣٧)

فإذا تأولّنا هنا الباء بالدلالة التي ذكرها الفراهيدي (كثرة الجماع) والحاء بالحنان، تكون الدلالة التي فُكّكت إليها الكلمة هي انكسار صور الكمال الغائب وغياب أحد المكملتين الحنان أو الجماع. (حسين، ٢٠٠٧م، ص١٩٦).

دلالات النقطة: تُحيل "النقطة" أو التنقيط على علامة الوشم كأن يتّخذ له البياض باليد أو الساق أو الوجه أو الوَرَقة أشكالاً. ولأنّ النقطة/ النقاط سَوَادٌ في العادة مقابل البياض أو ما يُقارب البياض فهي أشبه ما يكون بالموجود الدالّ على وجود حينما يظهر ويتشكّل ويشتغل علامَةً ودلالةً وامكانًا لمعنى رمزيّ مُحتجب يستدعي ناظره أو قارئه. كما يُراد بالنقطة في الاشتغال العلاميّ والدلاليّ الحروفيّ الإشارة إلى المؤتَلِف والمختلف بين الحروف، بضُروب من التحويل والتكثير، كالباء والتاء والثاء أو الحاء والجيم أو الفاء والقاف.

إنّ النقطة بالمنظور الحروفيّ العربيّ القائم على الدلالة العِرفانيّة التشكيليّة الرمزيّة الإيحائيّة، هو الحضور رغم ضآلته وصفته العارضة داخل دفْق الحركة في انسيال الوجود أو انسيابه. لذلك نزعت الكتابة في قصائد "النقطة" لأديب كمال الدّين إلى انتهاج سبيل "المحاولة" تليها محاولة بل محاولات لاستحالة حصْر النقطة في نظام تدليليّ واحد، إذ يتحكّم سِياق الاستخدام في كُلّ من الظهور العلاميّ والأداء الدلاليّ بلحظاتٍ وجهود كاتبة مختلفة.(الكيلاني، الحَرْف والطيف: عالم أديب كمال الدّين الشعريّ، كتاب الكتروني ٢٠١٠).

تشكّل النقطة عند أديب كمال الدين موضوعاً أو حرفاً أثيراً له دلالة سرية وسرمدية فهي ليست صفراً أو شيئاً مهملاً لا معنى له بل له دلالات عديدة، ففي قصيدة "خطاب الألف" من مجموعته (نون) يصف النقطة بأنها (سيّدة) و(حبّ) و(أعجوبة) و(دم) و(هروب) و(جنية) و(بخور) و(غموض) و(آه) و(خروج) و(عبث) و(دمعة) و(نجمة) و(مفاجأة) و(صومعة) و(ذهب) و(حبر) و(طعنة) و(ملاك) و(ملك مشعوذ) و(سطح) و(عقل) و(رمز) و(غيمة) و(دفقة) و(تلطيف) و(حلم) و(ربيع).

إنّه يعيش إشكالية التعبير عن سر الحرف وبالذات سر معنى النقطة مع أنها اختصار لكينونة الوجود، لكونها (رمز الإنسان الكامل) عند المتصوّفة، والإنسان الكامل هو(الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية الكلية والجزئية؛ فالنقطة بهذا مركز المعنى وسره، لأنها مركز العالم الذي رمزه (الباب) في قصيدة (إله المعنى) من مجموعته أخبار المعنى:

دعْ لي الباء ولا تأخذها

فلعلّي ألقى نقطتَها

ذاتَ صباح أو ذاتَ مساء

فأقومُ من القبرِ إلهاً

أبعثُ في جسدي الروح! (الأعمال الشعريّة الكاملة: ١٧٢)

فالباء رمز السرمدية والخلود الذي كان (كلكامش) يبحث عنه في (باء المعنى) حيث كان (كلكامش) هذا يسأل كالأعمى عن معنى الباء، ولأنّ الأعمى لا يرى وإنما يلمس ويتحسس الأشياء فإنه بالتأكيد لن يرى النقطة، لأنها أصبحت ريشة بالنسبة إلى جسده في قصيدة (باء المعنى) فغدت مركز العقل وحركته ومركز حركة الوجود ومحور الأرض فهي كاللوغوس عند الفلاسفة. (الجنابي، «قراءة في مجموعة (نون) للشاعر أديب كمال الدين/ النقطة سرّ المعنى»، مقال منشور في موقع الشاعر).

الحرف دلالة مفتوحة والنقطة علامة مكملة له؛ فهي بعض من الحرف أو ضلع فيه:

قالت النقطة:

أيّهذا المُعذَّب

أنا بعضٌ منك !

ضحك الحرفُ وقال:

أيّهذي المُعذَّبة

أنتِ بعضٌ منّي! (ما قبل الحرف.. ما بعد النقطة: ٦٣ و٦٤).

لقد افتتح الشاعر أديب كمال الدين ديوان "نون" بإهداء قال فيه: «إلى نقطتي وهلالي بمناسبة استمراري حيّاً حتّى الآن». وهو الإهداء الذي يوضح لنا عميق الصلة والمحبة الجامعة بين الشاعر ونقطته. يحمل كمال الدين نقطته إلى المنافي، قد قرّر أن يحوّل هذه النقطة التي لا تمثّل وطناً ولا وجوداً إلّا في وجدان الشاعر، لتصير وطناً في مخياله، ثمّ لتصير تجربة شعريّة عريضة لشاعر اختار أن يعمل فيها بهدوء مثل نحّات في مشغله القصيّ:

حبيبتي أيّتها النقطة

أيّتها الحمامة

أيّتها الصخرةُ المُلقاةُ على حافةِ النهر....

أيّتها الدمعةُ اللؤلؤة

كيفَ أجدُكِ الليلة؟ (شجرة الحروف: ٩٢)

ولم يكن الشاعر، من بين مجايليه، غير صورة الذات الدؤوب على اجتراح طريق الشعر، حين اختار حروفيّته الخاصة منكبّاً على معالجة الحرف بأبعاده الثلاثة، في اللغة والدلالة والمرموزات التي تحمل رسالته المعرفية.

أصدر أديب ديواناً عنوانه: (النقطة) وقد ضمّ ثلاثين قصيدة: ستاً منها حملت عنوان النقطة وهي : محاولة في أنا النقطة، ومحاولة في دم النقطة، ومحاولة في سؤال النقطة، ومحاولة في دخول النقطة، ومحاولة في حقيقة النقطة، ومحاولة في فرح النقطة. وهذه القصائد بحدّ ذاتها تشكّل، إذا جُمِعتْ سوية، مدخلاً رحباً إلى عالم الديوان. يجعل الشاعر من النقطة في هذا الديوان بؤرة تتجمع فيها كل الأشياء والرموز والمعاني والدلالات. ففي قصيدة (محاولة في أنا النقطة) المنشورة في ديوان النقطة، يستهل الشاعر قصيدته بالإفصاح عن المتكلم:

أنا النقطة

أنا بريقُ سيفِ الأصلع البطين.

فيلفت انتباه القارىء للعودة الى مرجعياته الدينية والتأريخية:

أنا النقطة

أنا بريقُ سيفِ الأصلع البطين

أنا خرافةُ الثوراتِ وثورات الخرافة

أنا معنى اللامعنى وجدوى اللاجدوى

أنا دم أخذته السماءُ ولم تعطه الأرض

أنا بقيةُ مَن لا بقية له

أنا الفرات قتيلاً ودجلة مدججة بالإثم

أنا ألف جريح

ونون فتحتْ لبّها لمَن هبّ ودبّ. (النقطة: ١٤)

نلاحظ أنّ الشاعر جعل النقطة بريقاً للسيف ودماً وكياناً بشرياً ثمّ هي الفرات ودجلة وألف جريح وحرف نون لا يدرك سرّه سوى العارف. ثمّ يعطي للنقطة بُعدَ الإنسان الذي يسع العالم:

فيَّ احتوى العالمُ الأكبر.

وهي الزمن المتمرّد:

فيَّ تجمهر الماضي

وخرجَ باتجاه المستقبلِ في مظاهرةٍ حاشدة. (السابق)

والنقطة هنا تتجلّى كفيلسوف يبحثُ عن الحقيقة فيجدها عجينةً مَرِنَةً بين يديه:

أنا النقطة

عرفتُ الحقيقةَ وعجنتُها بيدي. (السابق)

ويستمر هذا الخطاب (الأنويّ) ١٥ مرّة، فكلما أردتَ أن تكوّن صورة لهذه النقطة فاجأك الشاعر بصورة أخرى تجعلك في حيرة من أمرك وهي حيرة تواكبها الدهشة، فالنقطة ترتدي النظارات وتتخذ دور العارف بالناس الذين يبدون عراةً وحقائقهم مكشوفة. لكنّ الأكثر إدهاشاً أنها تهاجم الحروف في مواجهة ساخنة وساخرة في آن واحد:

أنا النقطة

أنا مَن يهجوكم جميعاً

أيّتها الحروف الميّتة.

سأهجو نفاقَكم وسخفَكم،

سأهجو أكاذيبكم وترّهاتكم

وكفاحَكم من أجلِ الأفخاذِ والسياطِ وكؤوس العرق. (السابق: ١٦)

نتائج البحث:

- ركّز الشاعر أديب كمال الدين في تجربته الشعرية على استخدام الحروف بجدارة حتى أصبح نصّه الشعريّ ثرياً بهذه الرموز وعُرِفَ بعد ذلك بالحروفي في الأوساط الأدبية والنقدية.
- إستطاع الشاعر أن يوظف الحروف والنقاط بشكل رمزي نفهم من خلالها مدى تركزه على معانيها الرامزة إلى مفاهيم ذات صلة بالألفاظ الشعرية التي صغرها بإتقانٍ في إيصال المعنى المطلوب.
- لقد أعطى الشاعر للحروف والنقاط شخصية إنسانية تحاور الحروف الأخرى التي يقصد بها شخصيات تاريخية ومعاصرة جعلها رموزاً لإيجاز الكلام وجمالية الشكل.
- إنَّ توظيف الحروف عند الشاعر ليس إعتباطياً بل جاء من مدى إتقان الشاعر للمعاني التي تحملها تلك الحروف في جسدها.
- استطاع الشاعر أن يلخّص الكثير من الكلمات والجمل بحروف نستطيع لمس الإحساس والمعنى المتدفق من خلالها.

المصادر والمراجع

- أدونيس (١٩٧٨م): زمن الشعر، ط٢، بيروت، دار العودة.
- أديب كمال الدين (١٩٩٣): نون، بغداد، دار الجاحظ.
- ---------- (١٩٩٦): أخبار المعنى، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة.
- ----------(٢٠٠١): النقطة، ط ٢، عمّان- بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- ---------- (٢٠٠٦): ما قبل الحرف.. ما بعد النقطة، ط١، عمان، دار أزمنة.
- ---------- (٢٠٠٧): شجرة الحروف، ط١، عمان، دار أزمنة.
- ---------- (٢٠٠٩): أربعون قصيدة عن الحرف، ط١، عمان، دار أزمنة.
- ---------- (٢٠١٣): الحرف والغراب، ط١، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون.
- ---------- (٢٠١٥م): رقصة الحرف الأخيرة، منشورات ضفاف، بيروت.
- ---------- (٢٠١٥م): الأعمال الشعريّة الكاملة، المجلد ١، لبنان، منشورات ضفاف.
- بلاوي، رسول (٢٠١٥م): آليات التعبير في شعر أديب كمال الدين، ط١، بيروت، منشورات ضفاف.
- -------- (٢٠١٧م): إطلالات نقديّة على الشعر الشعبي الأهوازي، ط١، أهواز، دار قهوة.
- حسين، صالح زامل: «الحرف في ضيافة القصيدة»، دراسة منشورة في كتاب الحروفيّ، إعداد وتقديم: د. مقداد رحيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٧م، ص١٩٦.
- الحكيم، سعاد (١٩٨١م): المعجم الصوفي، دار الجمل، بيروت.
- العلوي، هادي (١٩٩٩٧م): مدارات صوفيّة، مركز الأبحاث والدراسات مدى، دمشق، ١٠٥.
- القاضي، محمد عبدالغفار (١٩٩٥م): قضايا الإنسان في شعر البياتي، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، القاهرة.
- همام، محمد يوسف (١٩٣٠م): اللون، القاهرة، مطبعة الاعتماد، ط١.

المواقع الإلكترونية:

- الكيلاني، مصطفى: الحَرْف والطيف: عالم أديب كمال الدّين الشعريّ، كتاب الكتروني منشور على الرابط التالي:
http://www.adeebk.com/plaz/47.htm
- ميري، خضير«استكناه دلالات عطاء الحرف/ قراءة جمالية في قصائد (نون) للشاعر أديب كمال الدين»، مقال منشور في موقع الشاعر على الرابط التالي:http://www.adeebk.com/khther.htm